السياق الاجتماعي لانعقاد مجمع نيقية
تحليل سوسيوتاريخي

سامية قدري*

تعيننا قراءة السياق الاجتماعي التاريخي لأي حقبة أو مجتمع على فهم أي ظواهر تطرأ على هذا المجتمع، سواء كانت هذه الظواهر سلبية أو إيجابية، صالحة أم طالحة، مرغوبًا فيها أو غير مرغوب، فكلها نتاج لهذا السياق، خاصةً عندما يكون هذا السياق مفعمًا بالتطورات السريعة، والمتلاحقة، والمذهلة، والمتغيرة في الوقت ذاته، وأيضًا عندما يتميز هذا السياق بعدم التجانس الناجم عن وجود تنوع ثقافي وعرقي لا مثيل له. هكذا كانت الإمبراطورية الرومانية التي امتدت عبر الزمان والمكان وحوت من الشعوب والثقافات ما جعلها أكبر إمبراطورية في التاريخ، وما جعلها أيضًا تموج بالصراعات السياسية والدينية، الداخلية والخارجية، التي كانت أحد الأسباب الرئيسية لزوالها، وما جعل نظامها الاجتماعي نظامًا متفردًا استطاع أن يبقى أثره، حتى بعد زوال نظامها السياسي. في منتصف عمر الإمبراطورية، ظهرت المسيحية وسرعان ما انتشرت بين شعوبها، شرقًا وغربًا، مما أحدث تحولات كبرى على كافة الأصعدة: السياسية والاجتماعية والثقافية، خاصةً الدينية. بدأت هذه التحولات مع القرن الأول الميلادي وزادت وتيرتها إلى أن وصلت إلى الذروة في مطلع القرن الرابع الميلادي الذي شكل بداية الانهيار ومن ثم الزوال.

وفي هذه الدراسة القصيرة والبسيطة، أقدم قراءة لتاريخ الإمبراطورية الرومانية، منذ ظهورها كملكية، إلى جمهورية تشاركية، إلى إمبراطورية شاسعة وممتدة عبر دول وأقاليم عديدة يحكمها أباطرة، وأخيرًا إلى زوالها في القرن الخامس الميلادي. وتركز هذه القراءة على القرن الرابع الميلادي، القرن الذي شهد أكبر صراع ديني في تاريخ الإمبراطورية والذي تمخض عنه انعقاد أول مجمع مسكوني، مجمع نيقية، لمناقشة بدعة أريوس، البدعة التي أرهقت الكنيسة وكادت أن تعصف بالإيمان المسيحي الذي دعم ركائزه السيد المسيح وتابعه في ذلك الرسل والتلاميذ.

أولًا– الإمبراطورية الرومانية من الظهور إلى الأفول

الإمبراطورية الرومانية التي أطلق عليها: "إمبراطورية بلا نهاية" والتي تصورت الشعوب التي عاشت في كنفها أنها قد منحت لهم من قبل كبير آلهتهم "جوبيتر". تعد هذه الإمبراطورية واحدة من أكبر الإمبراطوريات في التاريخ لكونها ضمت مناطق عديدة متجاورة في جميع أنحاء أوروبا وشمال أفريقيا وغرب أسيا، ولا شك أنها قد خاضت صراعات عديدة وعنيفة، خاصةً في أثناء توسعها شرقًا وغربًا، إلى أن أصبحت دولة عظمى يصعب قهرها وتتحكم في العالم القديم، الشرقي والغربي.

كان مهد الحضارة الرومانية في القرن التاسع قبل الميلاد في شبه جزيرة الأبنين (إيطاليا حاليًا) في وسط البحر المتوسط وقد شكلت مع جزيرة صقلية جسرًا طبيعيًا بين أوروبا وإفريقيا، وفي ذلك الحين، كانت إيطاليا

*- أستاذ علم الاجتماع- كلية البنات- جامعة عين شمس.

مهجرًا لأبناء الحضارات القديمة وملتقى للتأثيرات الحضارية: الفينيقيّة، القرطاجية، واليونانية، والهلينستية. مرت هذه الحضارة بأطوار ثلاثة: الملكية، أو دولة روما عام ٧٥٣ ق.م، توسعت فيها روما وزاد نفوذها ودفعها هذا التوسع إلى النمو والتطور والازدهار. انتهى هذا العصر في عام ٥١٠ ق.م بإعلان الجمهورية. بدأت الجمهورية في القرن السادس قبل الميلاد وتحديدًا في عام ٥١٠ ق.م، واستمرت لخمسة قرون أي إلى العام ٣٠ ق.م تم خلالها التوسع داخليًّا وخارجيًّا، وتطور نظام الحكم، وتوسع الرومان عسكريًّا وتمكنوا من توحيد شبه الجزيرة الإيطالية. وفي العام ٣٠ ق.م، استطاع الرومان القضاء على دولة البطالمة في مصر وضمها إلى الإمبراطورية بعد هزيمة كليوبترا السابعة آخر ملوك البطالمة في معركة أكتيوم البحرية. وفي نهاية هذا العصر حدثت اضطرابات سياسية وعسكرية قادت إلى حكم الأباطرة. ففي العام ٢٧ ق.م تولّى "أوكتافيوس" الذي أطلق على نفسه "يوليوس قيصر" وأطلق عليه أعضاء مجلس الشيوخ أغسطس أي (المبجل) لكونه أعاد لهم اعتبارهم، ولأنه كان محبوبًا من الشعب، خاصةً وأن حكمه أنهى قرنًا من الحروب وبدأ مرحلة جديدة من السلام والازدهار استمرت حتى ظهور المسيحية. وفي العام ٩٨م تولى تراجان الحكم، أبرز وأشهر إمبراطور، حيث تميز عهده بالرخاء والازدهار ودخلت فيه الإمبراطورية لقمة اتساعها. وبذلك شهد القرنان الأول والثاني من ميلاد المسيح استقرارًا ورخاءً لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الإمبراطورية، وقد عرفت هذه الفترة "بباكوس روما" أي السلام الروماني ووصلت الإمبراطورية إلى أقصى امتداد لها في القرن الثاني وتحديدًا ما بين (٩٨– ١١٧) وقت أن توفي تراجان.

ومع مطلع القرن الثالث الميلادي، الذي عرف بقرن الأزمات، شهدت الإمبراطورية مرحلة خطيرة من تاريخها تميزت بأزمات سياسية واقتصادية هددت وجودها نتيجة ضعف الأباطرة، وقيام حركات التمرد والثورات التي انتشرت في مختلف مقاطعاتها، والتي أدت إلى انفصال عددٍ من الممالك التابعة للإمبراطورية وساهمت في سقوط هيبة جيشها، الذي استطاع في الماضي إخضاع كل شعوب حوض البحر المتوسط والسيطرة على أراضيها، هذا إلى جانب انتشار مرض الطاعون الذي سبَّب دمارًا كبيرًا للإمبراطورية من حيث عدد السكان والجيش، والإنتاج الزراعي خاصةً وأنها قد شهدت أكثر من جائحة طاعون بسبب الحملات التي قامت بها إلى بلاد الشرق الأدنى أو بسبب السفن التجارية التي كانت تأوي الفئران المصابة بالطاعون.

تولى الإمبراطور دقلديانوس الحكم عام ٢٨٤م، ورغم محاولات إعادة الاستقرار من خلال محاولات الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤–٣٠٥) إدخال إصلاحات جذرية في مختلف مجالات الحياة، والتي بدأها بإدخال نظام الحكم الرباعي في محاولة منه لحفظ الإمبراطورية من التفكك، فقسمها إلى أربع وحدات سياسية: وحدتان في الشرق ووحدتان في الغرب وجعل على كل وحدة حاكمًا يقيم فيها. وأدى هذا النظام إلى شطر الإمبراطورية إلى

شطرين: إمبراطورية في الشرق وأخرى في الغرب. هذا إلى جانب انتصاره على الإمبراطورية الساسانية*، وعقد معاهدة مع الساسانيين قضت بتركهم كل الأراضي غرب دجلة وعدم تدخلهم في أرمينيا وجورجيا، كما أجبر الشاه الساساني للتخلي عن العرش، ورغم ذلك أصبحت أرمينيا أول مملكة تتبنى المسيحية ديانةً رسمية. وعلى الرغم من الإصلاحات التي سعى دقلديانوس إلى إدخالها، إلا أن عهده تميز بالاضطرابات الدينية؛ لأنه رفع مكانة الإمبراطورية إلى درجة التالية الأمر الذي رفضه الرومان لأن المسيحية قد انتشرت بينهم، فحدثت مصادمات عنيفة بين الذين رفضوا المسيحية وبين الذين آمنوا بها. ولقد قاد هذا الصراع إلى أن يتنازل دقلديانوس عن العرش في العام ٣٢٣م بعد أن عجت الإمبراطورية بالبدع والهرطقات، كما ترك مكسيمانوس الحكم، وفقًا لنظام الحكم الرباعي الذي أدخله دقلديانوس. تولى إمبراطورية الشرق "غاليريوس أغسطس"، وتولى إمبراطورية الغرب "قسطنطين أغسطس".

سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها القسطنطينية على يد القائد الجرماني "أودكر" عندما احتل روما عام ٤٧٦م وذلك في عهد آخر الأباطرة "رومولوس أغسطس"، في حين ظلت الإمبراطورية الشرقية (البيزنطية) قائمةً حتى فتحها العثمانيون في القرن الخامس عشر الميلادي. وعلى الرغم من زوال الإمبراطورية، إلا أن تأثيرها على كافة مجالات الحياة ظل قائمًا: في الثقافة، الفن، والعمارة، والقانون، والعلوم، وأشكال الحكم وغيرها. ويرى فريق من المفكرين أن الإمبراطورية لم تَمُت، ولكنها تقمصت خلقًا جديدًا متمثلًا في دويلات أوروبا.

من الأمور المهمة التي ينبغي الإشارة إليها، أنه رغم التعدد والتنوع الثقافي الذي شهدته الإمبراطورية، إلا أن ثمة تماسكًا قد وجد بين مكوناتها وأن هذا التماسك قد خلق شعورًا بالهوية المشتركة بين الشعوب المنتسبة إليها وإلى نظامها السياسي على مدى فترة طويلة من الزمن. فقد سعت الدولة الرومانية إلى تنمية الانتماء لها عبر تقديم عديد من الخدمات العامة من خلال إنشاء الأماكن العامة المفتوحة للجميع، والمنتديات الثقافية، المدرجات، الميادين والجماعات العامة، والجمعيات التطوعية التي أسهمت في إحداث الحراك الاجتماعي، أي أنها خلقت مجالًا عامًّا يلتقي فيه عامة الشعب أو مجتمعًا مدنيًّا يقوي الانتماء ويسهم في الولاء للنظام السياسي. ورغم ذلك، لم تخلُ الإمبراطورية من بعض الأمراض الاجتماعية التي أسهمت بدورها في التأثير على السياسة والحكم: المحسوبية، وإعلاء المصالح الشخصية على المصالح العامة، الوشاية... إلخ.

* هي إمبراطورية فارسية نافست الإمبراطورية الرومانية على حكم العالم، حيث بلغ تأثيرها في أوروبا، والهند، والصين، وأسيا. حكمها الأكاسرة الفرس من السلالة الساسانية لما يقرب من أربعمائة عام، وفي أقصى اتساعها امتدّت من البحر المتوسط غربًا إلى الصين شرقًا ومن الأناضول شمالًا إلى الهند جنوبًا. للإمبراطورية الساسانية، مثل الرومانية، تأثير عظيم على الفنون الأوربية والأسيوية، خاصةً في العصور الوسطى.

ثانيًا- الإمبراطورية الرومانية والمسيحية:

كان للرومان آلهة، مثل آلهة الإغريق، وكانوا يعتقدون أن لآلهتهم سلطة على مختلف نواحي الحياة؛ عبدوا آلهتهم ولكن أعطوها أسماءً رومانية، وبنوا معابد ومزارات لتكريمها. وقد سيطرت الحكومة على الدين وكان الكهنة موظفين حكوميين، إما بالانتخاب أو التعيين، يقومون بالطقوس العامة التي كانوا يرون أنهم يكسبون بها عطف آلهتهم على الدولة. تزايد احتكاك الرومان بالأفكار الإغريقيّة في خلال القرن الرابع قبل الميلاد، إلى أن أصبح "جوبيتر" هو أكبر آلهتهم الذي عبدوه كإله للسماء ومتحكم في الطقس. ومع حلول القرن الأول لميلاد المسيح، فقد الرومان اهتمامهم بديانتهم وجذبتهم المسيحية التي كانت تخاطب فطرتهم الإنسانية وتبين لهم طريق الخير في الدنيا والآخرة، وسرعان ما أوجدت المسيحية لها أتباعًا إلى الدرجة التي جعلت البعض يرى أن سقوط الإمبراطورية كان بسبب إحلال المسيحية محل الوثنية.

ومع تنامي انتشار المسيحية، عانى المسيحيون من الاضطهاد الروماني منذ أواخر القرن الثالث وحتى الربع الأول من القرن الرابع، في عصر دقلديانوس، العصر الذي شهد موجة عاتية من الاضطرابات السياسية والدينية حيث مارس دقلديانوس كل أنواع العذابات ضد من أعلنوا إيمانهم وتمسكوا به. ظل الحال هكذا إلى أن أصدر الإمبراطور الروماني غاليريوس، الذي خلف دقلديانوس مرسومًا ينهي الاضطهاد ضد المسيحيين في العام ٣١١م، وهو المرسوم الذي عرف "بمرسوم ميلانو". وفي العام نفسه استشهد البابا بطرس الذي لقب بخاتم الشهداء. ومع حلول العام ٣١٢م، بدأت موجة جديدة من الحروب والمعارك الأهلية والصراعات الداخلية والخارجية أهمها: صراع الأمراء حول السلطة. استمرت هذه الأوضاع حتى العام ٣١٦م، ومع حلول العام ٣٢٥ تم فرض نفوذ الإمبراطورية الساسانية مرة أخرى على شبه الجزيرة العربية، وانتهى الحكم الرباعي على يد قسطنطين وتوليه الحكم بمفرده. وفي الوقت ذاته بدأ صراع بين الكنيسة وبين أريوس وأتباعه، مما دعا بالبابا ألكسندروس أن يطلب من الملك قسطنطين عقد مجمع مسكوني لحل هذا الصراع الذي كاد أن يقضي على المسيحية. وفي العام ٣٣٠ أعلن قسطنطين المسيحية الديانة الرسمية للبلاد.

بالإضافة إلى ذلك، أدى انتشار المسيحية إلى ظهور عددٍ من البدع والهرطقات التي ناهضت التعاليم المسيحية الصحيحة التي علمها المسيح وسلمها الرسل، فمنذ القرن الأول الميلادي، ظهرت "البدعة السيمونية" التي أسسها سيمون الساحر، الذي تصوّره البعض على أنه "قوة الله العظيمة"، استطاع هذا الساحر أن يجتذب أشخاصًا يكرسون حياتهم لنظامه بقوة السحر في عدد من المدن التابعة للإمبراطورية (السامرة، أنطاكية، روما) إلى الدرجة أنه قد بني له تمثال في روما. لقد استطاع الرجل أن يثير الحكام ضد المسيحيين وأن تنجح جماعته

في تخريب الكنيسة حتى القرن الثالث. وفي القرن الثاني الميلادي، ظهرت بدعة "أبيون" أو الأبيونية، وهي بدعة نادت بها مجموعة من المسيحيين المتهودين الذين كانوا موجودين منذ عصر، الرسل ولكنهم ظهروا بقوة في القرن الثاني، والأبيونيون هم حلفاء الإخوة الكذبة الذين أشار إليهم بولس الرسول في كورنثوس الثانية الإصحاح الحادي عشر، وغلاطية الإصحاح الثاني. وتعني "الأبيونية" الفقراء والمساكين، وقد أطلقوا على أنفسهم هذا الاسم لينالوا "الطوبى" التي أعطاها السيد المسيح للمساكين بالروح، وقد تكون تسمية أطلقها المسيحيون عليهم لأنهم كانوا مساكين في أفكارهم. والجدير بالذكر أنهم قد انقسموا إلى فريقين: فريق متزمت يحفظ ناموس موسى حفظًا حرفيًا، ويقدسون السبت، ويعتبرون الختان لازمًا للخلاص، وأوجبوا على المسيحيين حفظ الناموس القديم كشرط للخلاص. كما أنكروا لاهوت المسيح وأزليته ورفضوا اعتباره "اللوغس" وكلمة الله وحكمته إلى جانب إنكار ميلاده المعجزي من العذراء واعتبروه إنسانًا عاديًا كسائر البشر، وأنه النبي الذي تنبأ عنه موسى. أما الفريق المعتدل، فيحفظون ناموس العهد القديم ولكنهم لا يلزمون به الجميع ولا يتعصبون ضد من يرفضون حفظه.

لم يقتصر الأمر على هاتين البدعتين، بل ظهرت عدة بدع وهرطقات، إلا أن أهمها كانت البدعة "الغنوصية"، وبدعة "ماني" في خلال القرن الثاني الميلادي. وتعني الغنوصية "المعرفة السرية" التي يدعي اتباع هذا المذهب امتلاكها. والغنوصية ليست بدعة واحدة، ولكنها امتزجت بالعديد من مذاهب التصوف التي كانت سائدة: اليهودية، الزرادشتية، الأفلاطونية... وغيرها من المذاهب. وعلى الرغم من إعلان هذه الجماعات مسيحيتها، إلا أنها أفسدت روح المسيحية. أما بدعة "ماني" أو "المانوية" فقد انتشرت للدرجة التي اعتبرها البعض ديانة جديدة، وسرعان ما انتشرت بين المسيحيين منذ القرن الثاني الميلادي، للدرجة التي جعلت الملك قسطنطين نفسه يكاد يؤمن بها وينتمي إليها، وقد اتبعها القديس أوغسطينوس قبل توبته، خاصةً وأن ماني قد تشبه بالمسيح. ادعى ماني القدرة على حل مشكلة الشر في العالم من خلال مظهر معتنقيها بالقداسة والتقشف وارتداء الملابس البيضاء، ومن أهم مبادئ المانية وجود إلهين: إله للخير وإله للشر أو إله للنور وإله للظلمة، وأن لكل إنسان ملاكه الحارس الذي يهب المعرفة لكل من يشبهه أو يتفق معه. ويحتاج كل إنسان إلى رجل أو امرأة ينتمي إليه أو إليها لكي يستطيع أن يدخل العالم الروحي "البليروما" pleroma. شبَّه ماني نفسه بالمسيح ونادى بأنه "البارقليط" أي أنه الروح القدس نفسه، كما اختار لنفسه اثني عشر تلميذًا كشركاء له في عمله الجديد.

ثالثًا- القرن الرابع الميلادي، قرن التيه:

شهد القرن الرابع الميلادي، كما ذكرت آنفًا، قلاقل وصراعات سياسية ودينية كادت أن تفتك بالإمبراطورية وتهدد المسيحية، كما تعاقب منذ نهاية القرن الثاني عدد من الملوك على كرسي المملكة، ويُعد دقلديانوس، الذي تولى العرش سنة ٢٨٦م، أول وأشهر هؤلاء الملوك. جاء دقلديانوس إلى الحكم لكي يقضي على "أخيليوس"، والي مصر الذي أراد أن يستقل بها ونصب نفسه ملكًا عليها وجعل مقرَّه طيبة في صعيد مصر. حاصر دقلديانوس الإسكندرية

وضيق عليها وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة وأحرق المدينة وفتك بأهلها فتكا ذريعًا. ظن دقلديانوس أن المسيحيين هم الذين ساندوا أخيليوس، فلجأ إلى التعسف وارتكاب المظالم والاضطهاد، كما أعطى الأوامر لجنوده أن يفعلوا ما يريدون بأهلها من المسيحيين. استمر اضطهاد دقلديانوس وجنوده للمسيحيين ثلاث سنوات حتى أصيب بالجنون. وفي العام ٣٠٤م جاء صهره "غاليريوس" محاولًا القضاء على المسيحية، ولكنه وجد أن الدين ينتشر انتشارًا عظيمًا، فأصدر أمرًا جديدًا في سنة ٣٠٨م لاضطهاد المسيحيين بعد أن اشتد غيظه عندما رآهم لا يخافون الموت. وفي سنة ٣٢١م أبطل غاليريوس الاضطهاد بعد أن أصيب بمرض عضال. ورغم ذلك، استمر الإمبراطور مكسيمان في تعذيب المسيحيين حتى وقت استشهاد البابا بطرس الذي لقب "بخاتم الشهداء" سنة ٣١١م. والجدير بالذكر أن عدد المسيحيين خلال السنوات العشر بدايةً من حكم دقلديانوس وحتى مكسيمان قد تناقص من ٢٠ مليون إلى عشرة ملايين.

وعلى الرغم من أن الملك قسطنطين الذي تولى عرش إمبراطورية الشرق كان مشهورًا بالرقة، والعطف، والرأفة، والشجاعة كما كان محبًّا للمسيحية ومدافعًا عنها، لذلك اعتنق المسيحية بعد أن حوَّل كثيرًا من شعارات الإمبراطورية لعلامة الصليب. ولكن عندما تولى ابنه "قسطنس" سنة ٣٣٧م ناصر الأريوسيين ودعمهم في حربهم ضد الكنيسة وعمل على اضطهادها بصورة توازي اضطهاد الوثنين. والجدير بالذكر، أنه الذي عزل البابا أثناسيوس وعيَّن مكانه رجلًا يُدعى غريغوريوس، الذي مارس كل صنوف العذاب للمسيحيين وقتل عمة القديس أثناسيوس التي كانت تجمع التبرعات للأرامل والأيتام ورفض دفنها في مقابر المسيحيين، ونكل بالرهبان وقسوس الكنيسة.

رغم كل ما حدث من قلاقل، وتوترات، وبدع وهرطقات، واضطهاد للمسيحيين خلال هذا القرن والقرون التي سبقته، إلا أن البدعة التي أرهقت المسيحية والمسيحيين في خلال القرن الرابع هي البدعة التي أوجدها "أريوس" الشماس الليبي الذي رُسِم شماسًا في الكنيسة، ولكن بسبب أفكاره المنحرفة عن تعاليم المسيح، أسقطت عنه رتبته، ثم أعيد في فترةٍ تاليةٍ ورُسِم قسًّا، ولكنه كان يطمع في أسقفية الإسكندرية، ولما رفض البابا أن يمنحه هذه المكانة المتميزة، بدأ انتقامه علنًا في الكنيسة. يصف موللر، اللاهوتي الكاثوليكي أريوس بأنه: "كان يمتلك معرفة دينية ولا يملك أخلاقًا دينية". كما كان أريوس يمتلك علاقات مع عدد من الشخصيات السياسية والملك تحديدًا، وهو الأمر الذي منحه القوة في مواجهة الكنيسة.

مع بداية القرن الرابع الميلادي، بدأ أريوس في نشر بدعته التي أنكر فيها لاهوت المسيح، مما أزعج المؤمنين آنذاك، وهنا طلب البابا ألكسندروس ومعه عدد من الأساقفة من الملك قسطنطين عقد مجمع لمناقشة بدعة أريوس ومسائل أخرى مُتنَازَع عليها. والجدير بالذكر، أن هذه لم تكن المرة الأولى التي تُناقَش فيها بدعة أريوس، فقد كان المجمع السكندري عام ٣١٩م يناقش هذه القضية، وبالفعل استجاب الملك واجتمع نحو ثلاثمائة وثمانية عشرة أسقفًا (٣١٨) من كل أقاليم العالم المسيحي في مدينة نيقية وعلى رأسهم البابا ألكسندروس، البابا

الوحيد في ذلك العصر، وكان بحكم وظيفته هو المدَّعي ضد أريوس. كان مع البابا شماسه أثناسيوس* الذي كان يبلغ من العمر ٢٥ سنة، وعلى الجانب الآخر، حضر أريوس وأتباعه وكان من بينهم مطران نيقية وأسقف نيقوميديا وعدد من الفلاسفة، هذا بخلاف عدد من الحضور الذين جاءوا إما من أجل المشاهدة أو من الغيورين على لاهوت المسيح. وتذهب بعض التقديرات إلى أن عدد حضور مجمع نيقية كان نحو الألفين.

اجتمع كل هؤلاء في الساحة الوسطى من القصر الملكي. أراد الملك قسطنطين إن يحضر المجمع، ولكنه عدل عن ذلك مدعيًا أنه لا بد أن يترك المسائل الدينية لسلطة الكنيسة لا لسلطة الملك، وربما لأنه خشي أن يتحيز لأحد الأطراف مما يؤثر على علاقته بهما التي كانت في الأغلب حيادية. ظل المجمع منعقدًا قرابة شهر أظهر في خلاله أثناسيوس براعةً فائقة في الدفاع عن الإيمان المسيحي وعن لاهوت المسيح الذي أنكره أريوس. والجدير بالذكر، إن هذه لم تكن المرة ألأولى التي يحضر فيها أثناسيوس مجمعًا لمناقشة بدعة أريوس، فقد سبق وحضر المجمع السكندري عام ٣١٩م وأثبت براعة في النقاش مما جعل الملك قسطنطين يصفه بـ"بطل الإيمان". ظل أثناسيوس طوال انعقاد مجمع نيقية يفند دعاوى الأريوسية ويرد عليها ببراعة وقوة، ولما كثر الجدال، اقترح أثناسيوس إضافة كلمة Homo أي مساوٍ في الجوهر، بدلًا من Homi التي تعني مشابه. قوبل اقتراح أثناسيوس بالترحيب من أغلبية الحضور وتم صياغة قانون الإيمان على النحو الذي يؤمن به جميع المسيحيين في العالم، وذلك في التاسع من يونيو سنة ٣٢٥م.

ختم المجمع أعماله في ٢٥ أغسطس من نفس العام كما حُسِمت خمس قضايا أخرى هي: تحديد يوم عيد القيامة، حقوق البطريرك في رسامة أساقفة وقسوس، مشكلة معمودية الهراطقة، حكم زواج الكهنة. وفي المجمع نفسه اتفق على حرمان أريوس وتم القضاء على بدعته أو تصوروا أنهم فعلوا؛ فلم يمضِ على انتهاء المجمع خمسة شهور، وبدأ مشوارٌ آخر من المتاعب التي جلبها أريوس وأتباعه وكان على أثناسيوس أن يجاهد ضدهم. فعلى الرغم من قبول البابا الكسندروس للميلتنيين (أتباع أريوس)، وفق قرارات مجمع نيقية، عادوا مرة أخرى لإحداث القلاقل داخل الكنيسة، خاصةً بعد وفاة البابا ألكسندروس الذي أوصى قبل وفاته بأن يكون أثناسيوس خلفًا له.

---

* ولد أثناسيوس بالإسكندرية لأبوين وثنيين، ولكنه دخل إلى المسيحية هو وأمه وعمده البابا ألكسندروس، بدأ حياته شماسًا، وسكرتيرًا للبابا. أظهر أثناسيوس نبوغًا لاهوتيًّا مبكرًا عندما تصدَّى لبدعة أريوس، تم تنصيبه بابا بعد نياحة البابا ألكسندروس، وبعد انعقاد مجمع نيقية بثلاثة أعوام. وفي خلال فترة رئاسته للكنيسة، التي امتدت نحو خمسة وأربعين عامًا، واجه حملات متتالية من أتباع أريوس، وصلت لحد محاولات التخلص منه، نُفِي عدة مرات وفي كل مرة كان يعود لكرسيه أكثر صلابة وقوة. ترك تراثًا لاهوتيًّا مهمًّا يمثل مرجعًا رئيسًا للدفاع عن الإيمان المسيحي. من أبرز مؤلفاته: كتاب "تجسد الكلمة".

لقد بلغ إعجاب الغربيين به أن نقلوا رفاته تدريجيًّا نحو بلادهم: من الإسكندرية إلى القسطنطينية، إلى البندقية، فرنسا، أسبانيا. وقد أُحضِرت رفاته إلى مصر في عهد البابا شنودة الثالث عام ١٩٧٣م.

بدأ يوسابيوس*، أسقف نيقوميديا، في إعادة فكرة قبول أريوس وإعادته إلى الكنيسة، رغم كل ما حدث، وفي هذه الأثناء، تم تزكية أثناسيوس من جميع أساقفة الإسكندرية (مصر، وليبيا، وطيبة، والخمس مدن) ليكون أسقف الأساقفة حيث ترأس ١٢٩ أسقفًا من هذه المدن. ولقد حاول الأريوسيون إن يمنعوا انتخابه ولكنهم لم يفلحوا. والجدير بالذكر أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت الثانية بعد روما في الأهمية وربما الثالثة في الأهمية السياسية، والأولى على المستوى العلمي والمعرفي واللاهوتي والروحي*. كان في ذهن الأريوسيين معركة حقيقية ضد أثناسيوس دعمها موقف قسطنطين المتذبذب بين الأرثوذكسية والأريوسية، ورغم حالة التذبذب هذه، إلا أنه ظل أمينًا لكل قرارات مجمع نيقية وظل يدافع عنه ويؤيده.

بدأت فكرة قبول أريوس على مرحلتين أو من خلال خطتين: الأولى، بذل كل الجهد باللين واللطف وإلا بالتهديد والوعيد بالعنف، وواجهت أثناسيوس حملات متتالية من توجيه الاتهامات ورغم تبرئته من كل الاتهامات، إلا أن جماعة الأريوسيين لم تهدأ وبدأت باقتحام الكنائس وقتل المؤمنين، ومارست صنوفًا من الاضطهاد لم يعرف التاريخ مثله، ورغم نفي أثناسيوس لمرات عدة، إلا أنه ظل وحده صامدًا أمام كل هذه الضيقات يناضل في الظل من أجل الحفاظ على الإيمان. والثانية إسقاط أثناسيوس عن كرسيه، باعتباره العقبة الوحيدة أمامهم، حتى يخلو الجو نهائيًّا للأريوسية كمنهج لاهوتي ومبدأ فكري، وبالفعل عُزِل وأُبعِد عن الإسكندرية لمدة ثلاث سنوات. ورغم كل ذلك، ظل أثناسيوس وحده صامدًا أمام كل هذه القوى مجتمعة ولما قالوا له: "إن العالم قد صار كله ضدك" قال قولته المشهورة: "وأنا ضد العالم". استمر أثناسيوس يجاهد ويناضل عن الحق الإنجيلي حتى نهاية حياته على الأرض في سنة ٣٧٣م.

* يوسابيوس، هو أسقف نيقوميديا وكان أسقف بيروتاس (بيروت حاليًا) وقبل وفاته أسقف القسطنطينية، وكان من الأريوسيين. وعلى الرغم من قبوله لقرارات مجمع نيقية، إلا أنه كان يتحين الفرصة لمقاومته بكل الطرق. هو الذي قاد حملة التشهير ضد أثناسيوس إلى أن نجح في عزله في مجمع صور عام ٣٣٥م.

* ظلت الإسكندرية ومدرستها اللاهوتية تقوم بدورها في تثقيف الشعب والدفاع عن الإيمان المسيحي وسط كل العواصف، ولقد عهد البابا أثناسيوس إدارتها إلى اللاهوتي ديديموس الضرير بسبب ذكائه ودقة ملاحظته وعلو حجته.

المراجع:

1- الأب متى المسكين، القديس أثناسيوس الرسولي البابا العشرين، مطبعة دير القديس أنبا مقار، ط١ مايو ١٩٨١.

2- أحمد منصور زعيتري، الحضارة الرومانية وتاريخها: السياسي، الجغرافي، العمراني، جامعة زيان عاشور، الجلفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، 2020.

3- أشرف صالح، مختصر تاريخ البدع والهرطقات في القرون المسيحية الأولى- الأب/ أنطون فؤاد، متاح أونلاين:

https://catholic-eg.com/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AF%D8%B9-%D9%88

4- إيريس حبيب المصري، قصة الكنيسة القبطية، الكتاب الأول، د.ن ١٩٨٣.

5- سيد أحمد على الناصري، تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري، دار النهضة العربية، ط٢ القاهرة ١٩٩١.

6- محمد الحبيب بشاري، أوضاع الإمبراطورية الرومانية في النصف الثاني من القرن الرابع ميلادي ثورة جيلدون 398/397، مجلة الإتحاد العام للآثاريين العرب، مجلد 13، ع1، (243- 259).

7- منسى يوحنا، تاريخ الكنيسة القبطية ، ط٣ ١٩٨٢ د.ن.

8- سلوى الحديد، ما هي الحضارة الرومانية، متاح أونلاين:

https://mawdoo3.com/%D9%85%D8%A7_%D9%87%D9%8A_%D8%A7%D9